الحج بين عقيدة التوحيد ونعمة الأمن
قراءة سلفية في رسالتَي الخوارج وخدمة الحرمين من كتاب "رسائل إلى حاج "

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، أمر بالاعتصام ونهى عن التفرق، وجعل الاجتماع رحمة، والفرقة عذابًا وفتنة، أحمده سبحانه على نعمة الإسلام والسنة، وعلى نعمة الأمن والإيمان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل البيت مثابةً للناس وأمنًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، إمام الهدى وسيد الورى، الذي حذّر الأمة من مسالك الغلو والافتراق، وأمرها بلزوم الجماعة والسمع والطاعة في المعروف، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد:
فإن من أجلِّ ما يُتأمل في هذا الكتاب المبارك: «رسائل إلى حاج» لمعالي الشيخ الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بن عبد الله السند حفظه الله، أنه ليس رسائل وعظية عابرة، ولا كلمات موسمية مجردة، بل هو بناءٌ علميٌّ تربويٌّ متين، اجتمعت فيه أصول الاعتقاد، وفقه الاتباع، ومقاصد الشريعة، وفقه الاجتماع والأمن، في خطابٍ يجمع بين رقة الوعظ، وقوة التأصيل، ووضوح المنهج.

وقد ظهر للناظر المتأمل أن الكتاب بُني على أصل عظيم، وهو أن الحج لا تؤتى ثماره الإيمانية، ولا تتحقق منافعه الشرعية، إلا في ظل توحيدٍ خالص، وأمنٍ راسخ، واجتماع كلمة، ولزومٍ للسنة والجماعة.

ولهذا لم تكن الرسالة الخامسة في التحذير من الخوارج دخيلةً على موضوع الحج، ولا الرسالة السابعة في بيان جهود ولاة أمر هذه البلاد خارجةً عن مقاصده، بل هما -في الحقيقة- جناحا الحفظ لهذا الركن العظيم:

حفظ الدين والمنهج من الغلو والانحراف، وحفظ الحرمين والحجاج من الفوضى والاقتتال والاضطراب.

فأما الرسالة الخامسة، فقد كشف فيها المؤلف -حفظه الله- حقيقة هذا المسلك الخارجي الذي ما ظهر في أمة إلا مزق جماعتها، واستباح دماءها، وأفسد عبادتها وأمنها. وقد بنى رسالته على النصوص الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ في وصف الخوارج، وأنهم: ((يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية))، وأنهم ((يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان)).

وبيّن - وفقه الله - أن الخلل لم يكن في مجرد كثرة العبادة أو حرارة العاطفة، بل في فساد الفهم، وسوء التأويل، والخروج عن سبيل أهل السنة والجماعة؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:
[وأول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارج].

وكان السلف يعدّون الخوارج من أعظم أبواب الفتنة على الأمة؛ لأنهم يلبسون الباطل لباس الدين، ويجعلون الغلو شريعة، وسفك الدماء ديانة، والخروج إصلاحًا.

ومن تأمل كلام معاليه -حفظه الله- وجد أنه يقرر أصلًا عظيمًا من أصول أهل السنة: أن التدين إذا تجرد من العلم والاتباع، انقلب إلى أداة هدم وفتنة، وأن صلاح القصد وحده لا يكفي حتى يكون على هدي النبوة وفهم السلف الصالح.

ثم تأمل كيف قرن المؤلف هذه الرسالة بالرسالة السابعة في بيان جهود ولاة أمر المملكة العربية السعودية في خدمة الحرمين الشريفين وقاصديهما، فكأن الكتاب ينتقل بالقارئ من بيان أسباب الهدم والفتنة، إلى بيان أسباب الحفظ والاجتماع والأمن.

وهنا تظهر فقهية معاليه -حفظه الله- وبصيرته المقاصدية؛ إذ قرر أن الأمن ليس نعمة دنيوية مجردة، بل هو نعمة تعبدية، تحفظ بها الشعائر، وتصان بها الدماء، ويُتمكن بها من إقامة الدين.

وقد أحسن -حفظه الله- حين استحضر حال الحج قبل توحيد هذه البلاد: من خوف الطرق، وتسلط قطاع الطريق، وتفرق الجماعات، واختلال الأمن، حتى كان الحاج يخرج ولا يدري أيبلغ البيت أم يهلك في طريقه. ثم بيّن ما تحقق بعد قيام الدولة السعودية المباركة القائمة على التوحيد والسنة، من اجتماع الكلمة، وأمن السبل، ووحدة الإمامة، وخدمة الحرمين، وتيسير الحج، والعناية بالعقيدة، ومحاربة الشرك والبدع.

وهذا من الفقه العميق؛ فإن الحج لا يقوم على مجرد الأبنية والمشاريع، وإن عظمت، بل يقوم قبل ذلك على أصلين عظيمين:

أمنٌ يحفظ الشعيرة، وعقيدةٌ تحفظ الدين.

فإذا انهدمت الجماعة، وظهرت الفتن، واستبيحت الدماء، ضاعت الشعائر، وتعذر الأمن، وتعطل مقصود الاجتماع الذي شرع الله الحج لأجله.

ولهذا كان السلف يعظمون شأن الجماعة، ويرون أن فساد الدين والدنيا إنما يدخل من باب الفرقة والخروج، كما قال الإمام أحمد رحمه الله:
[الفتنة إذا لم يجد الإنسان فيها إمامًا يقتدي به، هلك].

ومن أعظم ما يلفت النظر في هذا الكتاب أن مؤلفه لم يكتب بلسان الإداري المجرد، ولا بلغة السياسي العابر، وإنما كتب بفقه العالم السلفي الذي يجمع بين النص والمقصد، وبين الاعتقاد والواقع، وبين الوعظ والبصيرة.

ولهذا فإن وصفي له بـ "الرئيس الفقيه" وصفٌ أراه في موضعه؛ إذ جمع الله لمعاليه -فيما يظهر للناظر- بين فقه الشريعة، وفقه الدعوة، وفقه الواقع، وفقه المصالح الشرعية المتعلقة بالحرمين والحج وشؤون الناس، وأعظمها فقه الأصول العظمى للإسلام ومنهج السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

فجاء كتاب معاليه -حفظه الله- شاهدًا على أن العقيدة الصحيحة ليست قضايا نظرية مجردة، بل هي أصل العمران والأمن والاجتماع، وأن التوحيد إذا صحَّ، صحّت معه الجماعة، واستقامت الأحوال، وأمنت السبل، وعُظّمت الشعائر.

وصدق الله العظيم إذ قال:
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

فالأمن الحقيقي يبدأ من التوحيد، والفتنة الكبرى تبدأ من الانحراف عن الوحي والسنة والجماعة.

وهذا هو المعنى الكبير الذي دارت عليه الرسالتان:
أن حماية الحج لا تكون بالحواجز وحدها، بل بحماية العقيدة والمنهج، وأن أعظم ما يحفظ الحرمين بعد توفيق الله: التوحيد، والسنة، والجماعة، وقيام ولي الأمر بحق الرعاية والحفظ والخدمة.

نسأل الله أن يجزي معالي الشيخ الدكتور عبد الرحمن بن عبد الله السند خير الجزاء على ما كتب وبيّن ووجّه، وأن يبارك في جهوده وجهود العاملين معه، وأن يديم على هذه البلاد المباركة أمنها وإيمانها واجتماع كلمتها، وأن يحفظ الحرمين الشريفين وقاصديهما من كل سوء وفتنة، وأن يرزق المسلمين حجًا مبرورًا، وسعيًا مشكورًا، وذنبًا مغفورًا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.